نظريات أصل اللغة في كتاب «الخصائص» وموقف ابن جني منها

إيهاب حمادة *

تمهيد

لعلّ البحث في نشأة اللغة من أقدم البحوث وأهمها، وهو لا يزال يشغل بال الدارسين حتى لحظتنا هذه، دون أن يطمئنوا إلى إجابة كافية شافية، مؤيّدة بالدليل القطعي أو المرجِّح لنظرية دون أخرى، ولا نغالي إذا ذهبنا إلى أن العرب كانوا الأسبق إلى هذا البحث، فأولوه اهتماما خاصا، ذلك بين من خلال ما أفرد له علماؤهم من جهد مخصوص ظهر في كتبهم القيمة المؤسسة لكثير من النظريات والمباحث في يومنا هذا، وإني لا أعرض لهذا السبق انتصارا لهم وإظهارا لانتمائي إلى هذه الأرومة فحسب، إنما لعظمة هذا المبحث من جهة، ولما رأيت من شبهات تعتري الدارسين سيما في بيان رأي ابن جني فيه، من جهة أخرى، لذلك أحاول في هذه الوريقات أن أظهر موقف ابن جني من نظريات نشأة اللغة، وما رجحه، من خلال سياق البحث في كتابه «الخصائص»، كل ذلك مؤيد بأدلة أسوقها من متن مؤلفه، وشواهد يطمئن لها جنان المنصف، مستنبطة من أسئلته وتعليقاته، واعتراضاته، وخلاصاته، في أثناء كلامه المثبت في خصائصه. على أن هناك ما يعضد ما

* أستاذ في كلية الآداب في الجامعة اللبنانية.

يذهب إليه من تبني رأي دون أخر، من خارج سياق نصه في الخصائص، من قبيل مذهبه الفقهي، أو مبناه الفكري، أو تأثره بأستاذه أبي علي الفارسي، وتعظيمه له ولعلمه، ورجاحة رأيه، وصوابية حجته، وغير ذلك، لكنني آليت أن ألتزم بما صرح به، وأثبته في كتابه ليس غير.

عرض ابن جني لنظريات نشوء اللغة

يعرض ابن جني لنظريات نشوء اللغة في كتابه «الخصائص» في باب خصّصه تحت عنوان «باب القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح» وهو في مجمل الباب عرض لثلاث نظريات أو آراء أُثبتها بحسب ترتيب عرضها من قِبَله، لأخلص إلى موقفه من كل واحدة منها، إذا كان من موقف صريح أو مرجح، لأختم البحث ببيان مذهبه في هذه القضية أو ما رجحه على الأقل.

يبدأ ابن جني هذا الباب بالقول: «هذا موضع محوج إلى فضل تأمل، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف»[1].

1. دلالة عبارة ابن جني «فضل تأمل»[2]:

يتبين لنا من هذا التقديم تصريح ابن جني عن الحاجة إلى فضل تأمل، ولاستخدام لفظة فضل دلالة خاصة في الجنبة التعظيمية لهذا المبحث، وهو الذي لم يستخدم «فضل» في أي باب آخر، ربما كان ذلك إشارة لشرف المبحث بما يتصل بكون اللغة وحيا لا تواضعا، وإلا لِم قال: «فضل تأمل»؟

2. دلالة استدراكه على مقدمة الباب:

ثم يأتي على ذكر أن أكثر أهل النظر ذهبوا إلى أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، فيكون بذلك قد بدأ من حيث ترتيب العرض بنظرية التواضع والاصطلاح، وإن كنا نرى أن استدراكه بما سمعه عن أستاذه أبي علي الفارسي، قد أخذ المبحث إلى عرض نظرية التوقيف والوحي، وعليه فإننا وانسجاما مع المنهج الذي أسلفنا، فسوف نبدأ بعرضه لنظرية التواضع والاصطلاح.

1- ابن جني، الخصائص، ج1، ص 40.

2- المصدر نفسه.

نظرية التواضع والاصطلاح

يذهب الدارسون إلى أن أوّل من قال بهذه النظرية، الفيلسوف اليوناني (ديمقريطس) فاعتبر أصل اللغة عملية تواطئيّة؛ لأن الاسم الواحد ذاته، يقبل عدّة مسميات، ولأنّ الشيء الواحد، يقبل عدّة أسماء، أو قد يتبدّل اسمه ولا يتبدّل هو، وانتهى إلى القول بأن الأسماء تُعطى للأشياء من لدن الإنسان لا من لدن قوّة إلهيّة[1]، وقد عبّر ابن جني عن هذه النظرية وفق الآتي:

«ثم لنعد فلنقل في الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحياً. وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة، قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً، إذا ذكر عرف به ما مسماه، ليمتاز من غيره، وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره لبلوغ الغرض في إبانة حاله. بل قد يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره ولا إدناؤه، كالفاني، وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد، كيف يكون ذلك لو جاز، وغير هذا مما هو جار في الاستحالة والبعد مجراه، فكأنهم جاؤوا إلى واحد من بني آدم، فأومؤوا إليه، وقالوا: إنسان إنسان إنسان، فأي وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده، أشاروا إلى ذلك فقالوا: يد، عين، رأس، قدم، أو نحو ذلك. فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معناها، وهلم جرا فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف. ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها، فتقول: الذي اسمه إنسان فليجعل مكانه مرد، والذي اسمه رأس فليجعل مكانه سر، وعلى هذا بقية الكلام. وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية، فوقعت المواضعة عليها، لجاز أن تنقل ويولد منها لغات كثيرة: من الرومية، والزنجية، وغيرهما. وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الأسماء: كالنجار، والصائغ، والحائك، والبناء، وكذلك الملاح»[2].

ونرى هنا أن ابن جني عرض لمرتكزات نظرية التواضع والاصطلاح، ومنهج

1- راجع الأنطاكي، محمد، دون تاريخ، الوجيز في فقه اللغة، الطبعة الثانية، مكتبة دار الشرق، بيروت، ص: 56 .

2- ابن جني، الخصائص، ج1، ص44 - 45.

أهلها، ثم بيّن المراحل التي سلكها الناس في المواضعة، وأسهب في بيان تفصيلها، ولم يقتصر ذلك على العربية فحسب، بل نشأة اللغات الأخرى كالفارسية وغيرها، وعلى ذلك تقاس الأمور. ثم بدأ بعرض الإشكاليات ولكن في سياق نصي متصل، يمكن لنا أن نجزئه بحسب العناوين التالية.

معنى المواضعة عند ابن جني

في أثناء عرضه رأي أصحاب هذا المذهب، أعاد ابن جني الطرح من زاوية المواضعة مع القديم، يعني أن الطرف الأول في المواضعة هو الله تبارك وتعالى، أما الثاني فهو آدم عليه السلام، حيث يقول: « قالوا: والقديم سبحانه لا يجوز أن يوصف بأن يواضع أحداً من عباده على شيء، إذ قد ثبت أن المواضعة لا بد معها من إيماء وإشارة بالجارحة نحو المومأ إليه، والمشار نحوه، والقديم سبحانه لا جارحة له، فيصح الإيماء والإشارة بها منه، فبطل عنهم أن تصح المواضعة على اللغة منه، تقدست أسماؤه». ثم عرض الرد على من ذهب مذهب عدم صحة المواضعة بين الله وعباده، ذلك أنها تستلزم وجود الجوارح، والله لا جارحة له، ففند ضعف ما ذهبوا إليه، فقال: « قالوا: ولكن يجوز أن ينقل الله اللغة التي قد وقع التواضع بين عباده عليها، بأن يقول: الذي كنتم تعبرون عنه بكذا عبروا عنه بكذا، والذي كنتم تسمونه كذا ينبغي أن تسموه كذا، وجواز هذا منه -سبحانه- كجوازه من عباده. ومن هذا الذي في الأصوات ما يتعاطاه الناس الآن من مخالفة الأشكال في حروف المعجم، كالصورة التي توضع للمعميات، والتراجم، وعلى ذلك أيضاً اختلفت أقلام ذوي اللغات، كما اختلفت أنفس الأصوات المرتبة على مذاهبهم في المواضعات. وهذا قول من الظهور على ما تراه»[1].

وهنا أوضح ابن جني حجية ظهور هذا القول من خلال قوّته ووضوحه، وهو انتصار لهذا المعنى، معنى إمكانية أن التواضع بين الله وعبده آدم، وفاق ما تقدم، وأكثر من ذلك عاد صاحبنا ليبرز رأيه ومحاججته، توكيدا لما ذهب إليه فقال: «إلا أنني سألت يوماً بعض أهله فقلت: ما تنكر أن تصح المواضعة من الله تعالى؟ وإن لم يكن ذا جارحة، بأن يحدث في جسم من الأجسام، خشبة أو غيرها، إقبالاً على شخص من الأشخاص، وتحريكاً لها نحوه، ويسمع في نفس تحريك الخشبة نحو

1- ابن جني، الخصائص، ج1،ص 45 .

ذلك الشخص صوتاً يضعه اسماً له، ويعيد حركة تلك الخشبة نحو ذلك الشخص دفعات، مع أنه -عز اسمه- قادر على أن يقنع في تعريفه ذلك بالمرة الواحدة، فتقوم الخشبة في هذا الإيماء، وهذه الإشارة، مقام جارحة ابن آدم في الإشارة بها في المواضعة، وكما أن الإنسان أيضاً قد يجوز إذا أراد المواضعة أن يشير بخشبة نحو المراد المتواضع عليه، فيقيمها في ذلك مقام يده، لو أراد الإيماء بها نحوه؟ فلم يجب عن هذا بأكثر من الاعتراف بوجوبه، ولم يخرج من جهته شيء أصلاً فأحكيه عنه، وهو عندي وعلى ما تراه الآن لازم لمن قال بامتناع مواضعة القديم تعالى لغة مرتجلة غير ناقلة لساناً إلى لسان. فاعرف ذلك»[1].

وهذا إقرار آخر من ابن جني على ضعف من ذهب إلى نفي المواضعة بين الله وعبده، وهو عنده لغة مرتجلة، تفتقد إلى الحجة والدليل. وما نسجله أنه حتى في عرضه لنظرية المواضعة فإنه جعلها بين الله وعبده، وهذا معنى من المعاني التي أشار إليها في حديثه عن تفسير أبي علي الفارسي للآية «وعلم آدم الأسماء كلها»، وسيأتي الكلام عليها تفصيلا في وريقات هذا البحث.

نظرية المحاكاة

يرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة نشأت عن محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة المحيطة به، وقد ذهب هذا المذهب قديما الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتلميذه سيبويه؛ يقول ابن جني في الباب الذي خصصه للبحث في نظريات نشوء اللغة: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبَل»[2]، ووقعت له على تعليق في الجزء الثاني من كتابه الخصائص «باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني»[3] يقول فيه: «قال الخليل كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدًّا فقالوا: صر،

1- ابن جني، الخصائص، ج1، ص46.

2- المصدر نفسه، ص47.

3- المصدر نفسه، ج2، ص154.

وتوهمـوا فـي صـوت البـازي تقطيعًـا فقالـوا: صرصـر»[1]. وعليـه نسـجل الملاحظـات التاليـة:

1. لـم يفِـض ابـن جنـي فـي نقـاش هـذه النظريـة، ولـم يسـجل أسـئلة مفترضـة، ولا إجابـات عليهـا، كعادتـه التـي جـرى عليهـا فـي كتابـه « الخصائـص»، لـم يفتـق فيهـا الأقـوال، ولـم يقلـب الأوجـه، لـم يثبـت مـن ذهـب هـذا المذهـب، أو مـن خالفـه، ثـم أنـه عـرض لـه عرضـا سـريعا. ولهـذا دلالـة نأتـي علـى بيانهـا فـي خلاصـات البحـث.
2. ختـم عرضـه المقتضـب لهـذا الـرأي بقولـه: «وهـذا عنـدي وجـه صالـح ومذهـب متقبَـل»[2]، ولذلـك ذهـب الدارسـون إلـى القـول بـأن ابـن جنـي يذهـب هـذا المذهـب فـي قضيـة نشـأة اللغـة، وأنـه سـاوى بيـن هـذا الـرأي، ورأي التواضـع والاصطـلاح، ثـم الإلهـام والوحـي، وهـذا مـا يحتـاج إلـى تـأنٍ وروية لبيـان المذهـب الـذي رجحـه ومـال إليـه.
3. فـي قولـه «وجـه صالـح»[3] إقـرار بـأن للأمـر وجوهـا أخـرى، وصـلاح وجـه مـن الوجـوه المحتملـة لا يعنـي الاعتقـاد بـه، وحسـم الموقـف، وكذلـك فـي قولـه: «مذهـب متقبّـل»[4]، خصوصـا أن لا أدلـة ولا حجـج تسـاق، ولـم يكلـف نفسـه عنـاء مـدّ الـكلام فـي البحـث، علـى كل حـال فإنـي أتـرك التفنيـد للخلاصـات الأخيـرة مـن البحـث، معتـذرا عـن إثارتهـا فـي غيـر محلهـا.

النظرية التوقيفية، نظرية الإلهام أو الوحي

وهـو مذهـب مـن يـرى أن اللغـة وضعـت عـن طريـق الوحـي والتوقيـف، فاللغـة إلهـام مـن اللـه تعالـى، وليسـت نتـاج الإنسـان فـي أي مرحلـة مـن مراحلـه، ويرجـع البعـض أصـول هـذه النظريـة إلـى الفيلسـوف اليونانـي هيرقليطـس الـذي رأى أن «الأسـماء تـدل علـى مُسـمّياتها بالطبيعـة لا بالتواطـؤ والاصطـلاح، وأن هـذه الأسـماء قـد أعُطيـت مـن

1- ابن جني، الخصائص، ج 2،ص154.

2- المصدر نفسه، ج1، ص47.

3- المصدر نفسه.

4- المصدر نفسه.

لـدن قـوّة إلهيّـة لتكـون أسـماء لمسـمَّياتها»[1]. ومنهـم مـن أرجعهـا إلـى النـص الدينـي مستدلا بمـا ورد فـي جـاء فـي سـفر التكويـن الأصحـاح الثانـي، وهـو مـا يدعـم هـذا الـرأي، أي القـول بـأن آدم هـو مـن وضـع الأسـماء، ولكـن اللـه وضـع فيـه القـدرة على وضعهـا، «وجبـل الـرب الإلـه مـن الأرض كل حيوانـات البريـة وكل طيـور السـماء، فأحضرهـا إلـى آدم ليـرى مـاذا يدعوهـا، وكل مـا دعـا بـه آدم ذات نفـس حيّـة فهـو اسـمها»[2]، أمـا على مسـتوى البحـث الإسـلامي فهـي وحـي وإلهـام، فالله ألهـم آدم عليه السلام أن يضـع لهـا أسـماء فوضعهـا، كمـا ذهـب ابـن دريـد فـي كتابـه الاشـتقاق، وابـن فـارس فـي كتابيـه: الصاحبـي فـي فقـه اللغـة، ومعجـم مقاييـس اللغـة، وغيرهمـا ممـن لا يتسـع المقـام لذكرهـم ومذاهبهـم؛ وفـي الواقـع فإنـه ينبغـي الوقـوف على عـرض ابـن جنـي لهذا الـرأي وقوفـا ماليـا، لأن فيـه تفصيـلا لـم يلتفـت إليـه الدارسـون، ولذلـك فسـوف أثبـت نصـه كمـا جـاء فـي البـاب المخصـص فـي كتابـه الخصائـص، ثـم أقـف على تبيـان النـكات فيـه.

يقـول ابـن جنـي: «إلا أن أبـا علـي رحمـه اللـه قـال لـي يومـاً: هـي مـن عنـد اللـه، واحتـج بقولـه سـبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، وهـذا لا يتنـاول موضـع الخـلاف. وذلـك أنـه قـد يجـوز أن يكـون تأويلـه: أقـدر آدم على أن واضـع عليهـا، وهـذا المعنـى من عنـد اللـه سـبحانه لا محالـة. فـإذا كان ذلـك محتمـلاً غيـر مسـتنكر سـقط الاسـتدلال بـه. وقـد كان أبـو علـي رحمـه اللـه أيضـا قـال بـه فـي بعـض كلامـه. وهـذا أيضـاً رأي أبـي الحسـن، على أنـه لـم يمنـع قـول مـن قـال: إنهـا تواضـع منـه. على أنـه قـد فسـر هـذا بـأن قيـل: إن اللـه سـبحانه علّـم آدم أسـماء جميـع المخلوقـات بجميـع اللغـات: العربيـة، والفارسـية، والسـريانية، والعبريـة، والروميـة، وغيـر ذلـك مـن سـائر اللغـات، فـكان آدم وولـده يتكلمـون بهـا، ثـم إن ولـده تفرقـوا فـي الدنيـا، وعلـق كل منهـم بلغـة مـن تلـك اللغـات، فغلبـت عليـه واضمحـل عنـه مـا سـواها لبعـد عهدهـم بهـا، وإذا كان الخبـر الصحيـح قـد ورد بهـذا وجـب تلقيـه باعتقـاده، والانطـواء على القـول بـه[3].

1- الأنطاكـي، محمـد، دون تاريـخ، الوجيـز فـي فقـه اللغـة، الطبعـة الثانيـة، مكتبـة دار الشـرق، بيـروت، ص56 .

2- الكتـاب المقـدّس، دار الكتـاب المقـدس فـي الشـرق الأوسـط، القاهـرة، الإصـدار الثالـث، الطبعـة الأولـى 2005م، العهـد القديـم، سـفر التكويـن، الإصحـاح الثانـي، 19.

3- ابن جني، الخصائص، ج1، ص 41.

ولنا على هذا النص جملة من التعليقات التي لا بد منها، تمهيدا لبيان الموقف النهائي من شرحها:

1. أكثر من ثلثي الباب في عرض رأي أبي علي الفارسي:

لقد قدم ابن جني الحديث على رأي أبي علي الفارسي استدراكا على قوله: «أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف»[1]، ثم مدّ الكلام في شرح رأيه وبيان هذا المذهب في مقدمة البحث، علما أن الحديث على رأي أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، فلماذا كان هذا الاستدراك في مقدمة الباب، وما هي دلالته؟

2. أشكال الإلهام والتوقيف عند ابن جني:

في الكلام الذي نقله ابن جني عن أستاذه أبي علي الفارسي ما يدل بشكل واضح على ثلاثة أشكال من الإلهام والتوقيف، وليس شكلا واحدا فيما ذهب إليه البعض، وهي:

أ. اللغة من عند الله:

يقول ابن جني: « إلا أن أبا علي رحمه الله قال لي يوماً: هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[2]. وجملة هي من عند الله جاءت على إطلاقها، والمتكلم عالم فذ هو أبو علي الفارسي، وليس إعرابيا يلقي الكلام على عواهنه، وجاء في معرض الإجابة على سؤال أحد العلماء المقدمين الذين شهد لهم بسبقهم وفضلهم وعلمهم، وهو ابن جني. ولذلك فإن جملته هذه تفيد الإلهام بكامل هذه اللغة استنادا إلى الآية القرآنية ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[3].

ب. أقدر الله آدم على تواضع اللغة:

وهو ما ذهب إليه ابن جني في الشرح من أنه أقدر آدم على أن واضع عليها، عندما قال: «وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة. فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به. وقد كان أبو علي رحمه الله أيضا قال به في بعض كلامه.

1- ابن جني، الخصائص، ج1، ص 40.

2- المصدر نفسه.

3- سورة البقرة ، الآية 31.

وهذا أيضاً رأي أبي الحسن، على أنه لم يمنع قول من قال: إنها تواضع منه»[1].

لقد ذهب ابن جني إلى تأويل الآية « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها «، بأنه أقدر آدم على أن واضع عليها.

ج. علم الله آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات:

وهو ما أثبته حين قال: « على أنه قد فسر هذا بأن قيل: إن الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية، والفارسية، والسريانية، والعبرية، والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها لبعد عهدهم بها»[2]. وهذا يعني أنه علم آدم كل الأسماء، وبجميع اللغات، ثم كان ما كان من علقة كل من ولد آدم بلغة، وتفرقهم في الدنيا. وهذا مغاير لمعنى أقدر آدم على أن واضع على اللغة. وبذلك نكون في هذا العرض أمام ثلاثة مذاهب في آن وهي:

الأول: اللغة وحي وإلهام من القديم المتعال.

الثاني: الأسماء من اللغة وحي وإلهام من الله تبارك وتعالى الذي علمها آدم عليه السلام.

الثالث: أقدر الله آدم على أن واضع اللغة، ـــ وهذا المعنى هو من عند الله لامحالة كما يقول ابن جني وهنا نحن أيضا أمام احتمالين، هما:

- أن تكون المواضعة بين الله وآدم. على النحو الذي قدمه ابن جني في عرضه لنظرية التواضع والاصطلاح.
- أن تكون المواضعة بين آدم وأبنائه. بعد أن أقدره الله عليها.

في كل هذه الاحتمالات، فإن ابن جني رأى إلى نظريات نشأة اللغة من خلال الوحي والإلهام، ولكن بأساليب مختلفة، حتى في نظرية التواضع والاصطلاح، هو لم يذهب مذهب التواضع الاجتماعي، يعني بين أفراد المجتمع في مرحلة متأخرة عن آدم عليه السلام. بل التواضع بين الله وآدم، أو بين آدم وأبنائه بعد أن علمه الله الأسماء.

1- ابن جني، الخصائص، ج1، ص 41.

2- المصدر نفسه.

الأسماء أقوى القبل الثلاثة

انتقل ابن جني بعد هذا كله إلى رفع إشكال تعليم الأسماء دون غيرها، (الأفعال والأحرف)، فجمع عدته اللغوية والمعرفية ليقدم كفاية الأسماء بوصفها الأشرف، وركيزة البناء اللغوي، فقال: «فإن قيل: فاللغة فيها أسماء، وأفعال، وحروف، وليس يجوز أن يكلم المعلم من ذلك الأسماء دون غيرها: مما ليس بأسماء فكيف خص الأسماء وحدها؟ قيل: اعتمد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوى القبل الثلاثة، ولا بد لكل كلام مفيد من الاسم، وقد تستغني الجملة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل، فلما كانت الأسماء من القوة والأولية في النفس والرتبة على ما لا خفاء به، جاز أن يكتفى بها مما هو تال لها، ومحمول في الحاجة إليه عليها»[1].

ثم يختم الباب بقوله: «واعلم فيما بعد، أنني على تقادم الوقت، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي، مختلفة جهات التغول على فكري. وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف، والرقة، ما يملك علي جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر. فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا ـ رحمهم الله ـ، ومنه ما حذوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحة ما وفقوا لتقديمه منه. ولطف ما أسعدوا به، وفرق لهم عنه. وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله ـ عز وجل ـ فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه، وأنها وحي.

ثم أقول في ضد هذا: كما وقع لأصحابنا ولنا، وتنبهوا وتنبهنا على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا ـ وإن بعد مداه عنا ـ من كان ألطف منا أذهاناً، وأسرع خواطر، وأجرأ جناناً. فأقف بين تين الخلتين حسيراً، وأكاثرهما فأنكفيء مكثوراً. وإن خطر خاطر فيما بعد، يعلق الكف بإحدى الجهتين، ويكفها عن صاحبتها، قلنا به وبالله التوفيق»[2].

والمتأمل في هذا المقطع من كلامه يسجل أيضا الملاحظ الآتية:

1. من يتأمل مليا في هذا المقطع ير جملة من العبارات المستخدمة التي تحيل إلى الرأي الأقوى عند ابن جني، وهذه العبارات هي:

1- ابن جني، الخصائص، ج1، ص 41.

2- المصدر نفسه، ص 47.

- «ما يملك علي جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر».
- «ومنه ما حذوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحة ما وفقوا لتقديمه منه».
- «وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله ـ عز وجل ـ فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه، وأنها وحي».

وكل هذه العبارات تؤكد مذهبه، غير أن أوضحها قوله: «فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقا من الله سبحانه، وأنها وحي»، وهي المرة الوحيدة التي يستخدم فيها ابن جني لفظ «الاعتقاد» في هذا الباب، وهذا الجزم يضعف كل قول آخر.

2. حجم الكلام في وصف هذه اللغة وأسرار سحرها، ثم ختم الثناء عليها بإثبات البعد النقلي (الحديث والرواية): «وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله ـ عز وجل ـ فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه، وأنها وحي».
3. ثم يعود ليعبر عن حيرته بين تين الخلتين، وهما أإلهام أم تواضع واصطلاح، ولكن التواضع والاصطلاح بحسب ما قدمه، يعني المواضعة بين الله وعبده آدم، سواء بتعليمه آدم الأسماء، أو إقداره على المواضعة، وليس كما ذهب البعض إلى المواضعة بين أفراد المجتمع في زمن ما، متأخر عن آدم.
4. أما قوله في آخر الكتاب: «قد تقدم في أول الكتاب القول على اللغة: أتواضع هي أم إلهام؟ وحكينا وجوَّزنا فيها الأمرين جميعًا، وكيف تصرفت الحال، وعلى أي الأمرين كان ابتداؤها؛ فإنها لا بد أن يكون وقع في أول الأمر بعضها، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه؛ لحضور الداعي إليه، فزيد فيها شيئًا فشيئًا، إلا أنه على قياس ما كان سبق منها في حروفه وتأليف...»[1]. فقوله: «فإنها لا بد أن يكون وقع في أول الأمر بعضها»، يعني أنه على أقل تقدير بعض اللغة في أول الأمر إلهام ووحي، وعلى كل حال فهي ما ذهبنا إليه من مفهوم التواضع والاصطلاح عند ابن جني. وأستهجن مذهب من يثبت هذا النص في سياق كلامه على اعتقاد ابن جني بالأمرين معا، على نحو منفصل، بمعنى إما إلهام، وإما تواضع،وليس الأمر كذلك، بل الأقوى على نحو التكامل كما بيّن في قوله: «فإنها لا بد

1- ابن جني، الخصائص، ج2، ص30.

أن يكون وقع في أول الأمر بعضها...»، وعبارة جوّزنا لا تدل بالضرورة على اعتقاده بهوإلا لصرح به كما صرح في ما سبق.

5. وأكثر من ذلك فإن الأسلوب والمنهج الذي قارب به ابن جني البحث لا ينسجم مع ما ذهب إليه البعض في الاعتماد على الخلاصة التي أثبتها في ختام الباب، وهو الحيرة بين الأمرين، وإن صرح بها، لأن جهده في سوق الحجج، والرد على الإشكاليات المزجاة تظهر موقفه المرجح لنظرية الإلهام، ويعضد هذا الموقف إشارات كثيرة له، أزجاها مرسلة عن سحر هذه اللغة ودقتها وبعد غورها، ووقوفه حسيرا أمام أسرارها، ثم أن التواضع والاصطلاح عند ابن جني كما بينا، ليست في عرض نظرية الإلهام والتوقيف، بل منسجمة معها، بحسب ما أبنّا.

خاتمة البحث

من خلال ما تقدم نخلص إلى تثبيت الخلاصات التالية:

1. لقد عرض ابن جني ثلاث نظريات لأصل اللغة، وهي:
   أ. نظرية الإلهام والوحي.
   ب. نظرية التواضع والاصطلاح.
   ج. نظرية المحاكاة.
2. ومن خلال سياق البحث يظهر لنا واضحا أن ابن جني قبل النظريات الثلاث، وليس صحيحا أنه أخذ بنظريتي الإلهام والوحي والتواضع والاصطلاح، فقط، بل قال في نظرية المحاكاة: «وهو عندي وجه صالح، ومذهب متقبّل»، على أن هذا التقبّل لا يعني الاعتقاد بالضرورة.
3. ثم إن الاصطلاح والتواضع عنده ليس كما ذهب البعض، من أنه تواضع بين أفراد المجتمع في زمن متأخر عن آدم عليه السلام لكل اللغة، إنما تواضع بين الله تبارك وتعالى وآدم عليه السلام، أو بين آدم وأبنائه، ولكن بعد أن علم الله سبحانه آدم الأسماء، وفي كلا الحالين، فإن التواضع برأي ابن جني هو فرع من الإلهام والوحي، وليس مستقلا عنه، وهذا تصحيح رئيس لما كان يذهب إليه الدارسون في بيان رأي ابن جني.
4. ومن خلال السياق أيضا، ومنهج عرضه، وحجم الكلام في بيان رأي أستاذه

أبـي علي الفارسي في الإلهـام والوحي، وسـوق الحجـج، ودفعـه الإشـكالات، كإشـكال الأسـماء، وثنائـه علـى هـذه اللغـة، وأبعادهـا، وأسـرارها، تبيـن لنـا واضحـا، أن ابـن جنـي رجّـح مذهـب الإلهـام والوحـي علـى مـا عـداه، حتـى حصـل لنـا اطمئنـان في التصريـح: إن مذهـب ابـن جنـي هـو مذهـب أسـتاذه أبـي علـي الفارسـي، وهـو أن أصـل اللغـة إلهـام وتوقيـف، وإن كان أقلـه الأسـماء.

5. وعليه يمكننا إعادة صياغة رأي ابن جني في أصل اللغة وفق الآتي:

أ. أول اللغـة إلهـام مـن اللـه تبـارك وتعالـى إلـى عبـده آدم عليه السلام، بـأن علمـه الأسـماء، أو أقـدره علـى أن واضـع عليهـا.

ب. التواضع على اللغة سواء بين الله وآدم أو بين آدم وأبنائه، فيما احتاجوا إليه، ثم توسعت اللغة بحسب الحاجة، عن طريق المواضعة بين أفراد المجتمع ولكن على سمت الأسماء المعلمة وعلى قياس ما كان سبق في الأسماء، وهذا ما يستفاد من قوله: « فإنها لا بد أن يكون وقع في أول الأمر بعضها، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه؛ لحضور الداعي إليه، فزيد فيها شيئًا فشيئًا، إلا أنه على قياس ما كان سبق منها في حروفه وتأليفه».

ج. ثم إن بعض الألفاظ قد استفيدت من خلال المحاكاة، في زمن لاحق.

د. وعليه فإن اللغة في مذهب ابن جني لم تكن دفعة واحدة.

هـ. ينبغي عدم فهم النظريات التي عرضها ابن جني على نحو الانفصال، فهي إما كذا وإما كذا، إنما على نحو التكامل، كان الحدَّ الأدنى منها ابتداء الوحيُ بالأسماء.